محمد النويهي

المرأة وتقدم المجتمع

مهدى الى الاتحاد النسائي السودانى
فى العيد السنوى الثالث لذكرى تأسيسه

دار الطباعة الحديثة الخرطوم

المرأة وتقدم المجتمع

« القيت هذه المحاضرة فى مهرجان المرأة والطفولة الذى أقامه الاتحاد النسائى الفرعى فى واد مدنى في يوم ١٤ ديسمبر ١٩٥٤ »

كثيرا ما وجدت الكتاب ، حين يريدون ان يصوروا كيف تؤثر المراة فى المجتمع بالتقديم اوالتأخير ، يقولون ان النساء يكون نصف المجتمع ، فاذا كن متأخرات فمعنى هذا ان نصف المجتمع يبقى متأخراً .

ولكن هذا وصف قاصر ، لا يحيط بالخطب الكامل الذى يحل بالمجتمع إذا كانت نساؤه متأخرات . لانه يهمل التأثير الجسيم الذي للمـــرأة على الرجل فى مختلف مراحل حياته ، فان تأخر النساء يعدي الرجال ايضا بنصيب محتوم من التأخر . فلا تكون النتيجة تأخر نصف المجتمع فحسب ، بـــل اصابته جميعه ، رجاله ونسائه معا ، بما يعوق تقدمه كوحدة اجتماعية حيوية

ذلك أن للمرأة دوراً عظيما تلعبه فى حياةالرجل من ناحيتين شديدتى الاهمية : كونها اما ، وكونها زوجة ، فلنلق نظرة على مدي تأثيرها فى الرجل من كلتيهما

تأثير الام المتأخرة

التفت الناس منذ زمان قديم الى تأثير الأم فى اطفالها ، وقرروا ان الام هى المعلم الاول للطفل ، او مدرسته الاولى التى تعده للحياة . واستعملوا غير هذين من اساليب التعبير عن الحقيقة الواضحة التى شاهدوهـــا ، ولكن الانسانية لم تدرك مدى هذا التأثير ومبلغ عمقه الا فى عصرنا الحديث ، حين نشأ علم النفس التحليلى .

كثيراً ما قرأنا لكتابنا استشهادهم فى هذا المجال ببيت حافظ إبراهيم

الام مدرسة اذا اعددتها   اعدت شعبا طيب الاعراق

ولكنى لست ادرى هل يدرك كثيرون منهم خطورة هذا التأثير حـــق الادراك ، فان علم النفس الحديث قد كشف فى هذا المجال حقائق مخيفة ترينا عمق العلاقة بين الأم وطفلها ، وكيف تضرب هذه العلاقة فى جذور النفس الانسانية . وكيف تكيف شخصية الفرد فتؤثر لا فى حياته كطفل فحسب ، بل فى حياتـه كلها بعد ان يشب عن الطوق الى ان ينتهى بالشيخوخة

فالمطلع على الدراسات النفسانية المعاصرة يعرف تعدد العقد والصراعات الباطنة التى تضطرم فى اعماق الفرد البشرى نتيجة لهذه العلاقة ، وكلنـا يبدأ حياته بأن يمر فى هذا الاتون المستعر ، فاما ان يخرج منه سالما فتتـاح لشخصيته الصحة والسلامة والنضوج . واما ان يؤذيه هذا الصراع اذا لم يستطع حله ، ايذاء يختلف ضعفا وقوة ، وربما يصل حد الانهيار العصبي .

فالطفل الصغير يراقب معاملة الام له ، وسلوكها نحوه ، ودرجتها من الحكمة والتعقل او من الهوس وحدة الانفعال ، ومقدار ما تعطيه من الحب الذى يحتاج اليه ، هل تعطيه قدراً حكيماً متزنا ، او تسرف فى تدايله حتى تفسد شخصيته ، اوتشتد فى القسوة عليه ؛ او تتراوح بين الاسراف فى التدليل والاسراف فى القسوة تراوحا متناقضا . ونوع الاقاصيص التى تقصها عليه ومدي ايمانها بالخرافات والسحر والعفاريت المرعبة ، أو قل بايجاز فلسفتها هى فى الحياة وموقفها من تجاربها المختلفة ؛ كما انه يراقب سلوكها نحو اقاربه الادنين مثل الأب والأخوة والأخوات ، ونحو الاب بنوع خاص ؛ ماذا تعطيه من الحب أو الكره ، والثقة والاطمئنان أو الخوف والارتياب .

والطفل فى هذا كله يراقب أمه مراقبة دقيقة متصلة يعجز معظم الكبار عن ادراك مدى عمقها ودقتها ، فتنطبع آثار هذه المراقبة على نفسيته الباطنة انطباعا بليغا ؛ والمهم فى هذا كله ان ندرك ان تأثيرها عليه ليس تأثيراً مؤقتا يقتصر على زمن الصبا ويزول حين يشب الطفل ويصير فرداً مستقلا ، بل هو تأثير باق يتغلغل فى تكوينه النفسانى ويؤثر فى حياته كلها اما بالفائدة واما بالضرر . اما باستقرار الشخصية واعتدالها واما باضطرابها وزعزعتها الدائمة وانتهائها احيانا الى الالتواء والشذوذ .

صحيح ان هذا التأثير ربما تدخل عليه بعض التعديلات والتوجيهات من نوع التربية والتعليم الذي يتلقاه فى المدرسة ثم فى الجامعة ، ومن نوع الأصدقاء الذين يتخذهم . ولكن أغلبها تعديلات وتوجيهات فرعية لا تستطيع

أن تضرب الى الأساس النفساني الباطن الذى تم وضعه، وخصوصاً اذا كان الطفل ذا حساسية مرهفة، فانه فى هذه الحالة لن تزول آثار تلك العلاقة من نفسيته مهما يكتسب من التعليم والثقافة.

تجد مصداق هذا اذا انعمت النظر فى المتعلمين فى معظم الاقطار الشرقية ما بأن تدرس دراسة مباشرة من تعرفهم منهم معرفة شخصية، أو بأن تقرأ عنهم فى الكتب والابحاث التى وضعها من درسوهم. فان هؤلاء المتعلمين قد يظفرون بنصيب وافر من العلم؛ فحين يتحدثون تسمع منهم آراء محررة وافكاراً متقدمة، وتسمع سخرية منهم بالخرافات وتهكماً على من يؤمنون بها. وتسمع منهم ازدراء بمجتمعهم الشرقى المتأخر واحتقاراً لما يسيطر عليه من التقاليد البالية والمعتقدات الوهمية؛ ونسمع منهم فى خلال هذا كله اقتباسات بارعة من أقوال الفلاسفة الغربيين وعظام المحررين الفكريين.

هذا ما (تسمعه) من حديثهم. ولكن تأمل في سلوكهم؛ تأمل فى ردفعلهم على تجارب الحياة المختلفة، مفرحها ومحزنها. تأمل فيما (يعملون) حين تجبههم مشكلة محيرة، أو تهددهم امكانية مفزعة؛ تجد في كثير من الأحيان انقساماً عجيبا بين فكرهم وسلوكهم.

أما فكرهم فهو على ما وصفناه من التحرر والتقدم، ومن السعة والعصرية وأما سلوكهم فهو ملىء بالوسوسة والتزعزع تكثر فيه المفارقات والمناقضات المنطقية، وتسيطر عليه عقائد دفينة في التشاؤم والتفاؤل ليس لها أساس علمي صحيح، شديدة المباينة للاراء التى تتقبلها عقولهم وتنطق بها السنتهم.

والسبب في هذا الانقسام هو انهم على ما بلغته (عقولهم) من العلم والمعرفة

والمعرفة ،ومن التنور والتحرير، تظل نفسياتهم ميدان حرب تتطاحن فيه العقد الخفية التي غرستها في اعماقهم امهاتهم الجاهلات المتأخرات. وهذه الصراعات النفسية تظل تلفحهم بلهيبها طول حياتهم ،فتظل شخصياتهم قلقة مضطربة متأرجحة لايتاح لها التكامل والتناسق والانسجام ،ولاتبلغ درجة النضوج والاستواء ،ويظلون على نصيب من الصبيانية والبدائية ومن هذا يكثر في سلوكهم الفجاجة والغرارة ، وتضعف فيه روح الثقة والاعتماد على النفس . هذا بصرف النظر عن ذكائهم ، بل كلما زاد ذكاؤهم وتوقد ذهنهم ، ازداد عمق تأثرهم بما غرسته فيهم الأم المتأخرة ، لانهم يكونون كافلام زائدة الحساسية عظيمة التقبل للمؤثرات شديدة الاستبقاء لاثارها .

من هذا ترون كيف ان تأثير الام المتأخرة تبقى اضراره حتى في المثقفين ذوي الثقافة الرفيعة . فيبقون برغم علمهم الباهر على نصيب من ضعف الشخصية ، وتزعزع النفسية ، وعدم النضوج والثبات والاستقرار ، والخوف الباطن من مجابهة الحياة المتقلبة ، وفقدان الشجاعة الادبية ، والتهرب من الحقائق المؤلمة والاعتصام منها بابراج محصنة . وهذا في نظري هو السبب الاساسي لما نجد في معظمهم من خمود الضمير الاجتماعي ، وعدم الاكتراث بسائر مواطنيهم ، والتقاعد والخمول عن اصلاح مجتمعهم الذي يسخرون من تأخره ورجعيته ، وبذلهم جهدهم في نفعهم الضيق المحدود . فان الانانية الضيقة والتهرب من حقائق الحياة الكريهة صفتان من صفات الطفولة ، ولا يتخلص منهما الا الفرد الذي تم نضوج شخصيته واستواؤها .

هؤلاء المثقفون الذين تبهرك ثقافتهم ، قد درج كل منهم من حجر ام تعتقد فى الخرافات والاوهام، وتؤمن بالسحر والشعوذة ، وترعب من قوى الطبيعة الغامضة ، ويسيطر على حياتها وعقلها الدجالون من مختلف الانواع . وهى قد نقلت الى طفلها هذه العدوى الخرافية ، فاستحوذت على نفسه وتغلغلت فى عقلـــه الباطن حيث يعسر او يستحيل ان تتطرق اليها الاراء المتنورة . فهو وان صار عقله الواعى يستسخف هذه المعتقدات ويجزم بخطأها ، فان نفسيته تظل خاضعة لها مرعوبة مضطربة مزعزعة .

فان اردتمونى على ان اضرب لكم مثلا على صحة ما اقول، فسأعطيكم هذا المثال من تجربة شخصية حدثت لى ، حتى لا تظنوا اننى فى تعدادى لنقائص المثقفين الشرقيين اخرج نفسى من زمرتهم ، او ان معجزة انقذتـــنى من تناقضهم .

حين كنت طفلا فى قريتى المصريـة كنت أومن بما تتناقله نساؤها من اخبار عن العفاريت التى تسكن الجبانة ، وتفترس من تلقاه بالقرب منها من الادميين فى الليلة المظلمة ، او تركب ظهره وتعذبه عذابا مهينا .

ثم نموت وشببت ، واصبت حظـا من التعليم الجامعى، ورحلت الى الغرب حيث قضيت فيه سنوات نهلت فيهـــا من حضارته ورقيه الفكرى، وظننت بالطبع اننى قد انتزعت تلك المعتقدات السخيفة من عقليتى الى الابد وقد انتزعتها حقا من (عقلى) كعقيدة ، فلم أعد اومن بصحتها ، بـــل اقتنعت بخطأها وسخرت من سخافتها . ولكن هل تغلغل هـــذا الاقتناع

الجديد الى اعماق نفسى فانتزع منها مخاوفها الباطنة ؟

صممت على ان اثبت هـذا لنفسى ولغيرى ، بعد مناقشة حامية دارت بينى وبين بعض فتيان القرية . فتخيرت ليلة مظلمة وانطلقت الى الجبانة خارج القرية . فما مكثت دقيقة حـتى بدأت اتلفت حولى فى حذر ، وسرعان ما اخذنى رعب ، رعب خفى مسيطر غلاب لم استطع مقاومته ، فقفلت راجعا الى القرية ، فى خطى بدأت بطيئة رزينة ، وانا اتلفت ورائى فى توجس شديد . ولكن ما لبثت قدماى ان اسرعتـا من تلقائهما ، حتى استحالت مشيتى الى ركض فعدو فزع مرعوب . وانا فى كل هذا اسخط على نفسى واشتمها لجبنها وسخافتها .

ان الحقيقة المحزنة التى استكشفها علم النفس الحديث ، هى ان العقل الواعى لا يؤثر تأثيرا كبيرا فى تكوين النفسية ، بل اغلب التأثير يرجع الى العقل الباطن ؛ وهذا لا يكونه تعليم المدرسة او تعليم الجامعة ، وانما يكون معظم عناصره نوع التربية النفسانية الـتى لقيها الفرد فى السنوات الاولى من حياته :

وهذه السنوات الاولى هى التى يكون الفرد فيها شديـد الملازمة لامه ، وتكون هى المؤثر الاعظم فى تربيته . ومن هذا يتجلى لكم مدى الضرر العميق الذى تتركه الأم الجاهلة المتأخرة فى نفسية طفلها .

ولكن الخطب يزداد اضعافـا حين نفكر فى المصير الذى ينتظره اذا شب فتزوج من زوجة جاهلة متأخرة .

تأثير الزوجة الناخرة

في تدريسي لطلبتي السودانيين كثيرا ما حدثت لي هذه التجربة الاليمة التي اقصها الآن عليكم :

بينا انا ادرس لهم واجيب اسئلتهم واستمع الى مناقشاتهم ؛ والمس ذكاءهم الطبيعي واعجب بنجابتهم الاصيلة ؛ وادهش من سرعة استجابتهم وقوة استعدادهـــم للتحرر الفكري والترقي الادبي ؛ وابني الآمـال العريضة في مستقبلهم وفيما سيقدمون الى مجتمعهم وامتهم ؛ اذا بصورة رهيبة تعرض لي فجأة فتستحيل آمالي الى خوف وتوجس وأدرك ان الجانب الاعظم مما يحصلونه في التعليم الجامعي سيضيع هباء في اكثرهم ؛ تلك الصورة هي ماسيصير اليه حين يتخرجون ويتزوجون نساء جاهلات متأخرات . وهو بالطبيـــع المصير الذي ينتظر اغلبيتهم الساحقة .

ماذا سيحدث لهؤلاء المساكين ؟ هذا احدهم يبدأ حياته الزوجية بتفاؤل كبير ويصمم على ان يجعل منها زيجة نموذجية ، ويعقد العزم على ان ينقل لى زوجته وشريكة حياته قبسا من نور العلم الذي ظفر به ، وان يبـــذل جهده في ترقية عقلها . وانتشالها من خرافاتها واوهامها : وقد يتمـادى به الامل المعسول فيفكر في اطفاله منها ؛ فيتخيلهم اطفالاً نظافاً اصحاء لا يحملون الاحجبة والتمائم ولا يقادون الى الفكي والدجال ، بل ينعمون بالتربيـــة الصحيحة الراقية التي حصل عنها فكرة طيبة من دراساته وقراءاته ومناقشاته وسيبذل هو مجهودا كبيرا في الشهور الاولى من الزوجية ويحاول ان

يجاذب زوجته اطراف الحديث الراقي المتنور ، وان يخبرها بما قرأه في الصحف من امور السياسة والثقافة والمجتمع . وقد تستمع اليه عروسه في ابتسام وامل ، وتبدو منها الموافقة على ارائه المستنيرة المتحررة . وقد تبذل هي ايضا جهدا من عندها التطاوع ارشاداته الحكيمة . ولكن ماذا يحدث تدريجيا ؟

يمر الاسبوع بعد الاسبوع ، ويعقب الشهر الشهر ، فيتبخر بالتدريج عزمه وتذوي حماسته الاصلاحية ، اذ تبدأ العقبات الصعاب والعراقيل الشداد تقوم في وجهه ، من عقلية زوجته نفسها ، التي مهما تبذل من جهد في طاعته والتطبع بطبعه فانها يستحيل عليها ان تنتزع نفسها من براثن التقليد الموروث الذي صاغ عقليتها ونفسيتها في قالب قد تحدد الان وجمد . ومن حماته واصهاره ، ومن امه هو وتدخلها المستمر في نظام البيت ، وسخريتها من ارائه واقتراحاته ، وضربها عرض الحائط بنصائحه وابتهالاته . فيكتشف في النهاية انه لايستطيع ان يواصل المعركة العنيفة ، وكيف يواصلها وهو يعود الى بيته من عمله اليومي مجهد الجسم ، مضني العقل ، وليس من السهل ان يثير المعارك والمنازعات كل يوم وكل ساعة ، وهو يؤثر قدرا من الراحة والهدوء والسلام في منزله . فيضطر الى السكوت والتسليم ، وينتهي الى الخضوع والاذعان التام ، ويرتد عن محاولته الاصلاحية شاعرا بالمرارة والحقد ، شعورا يجعله في شر حالة نفسية ممكنة ، شعور المغلوب على امره الذي يرى الضرر الاكيد ولايستطيع ان يتفاداه .

ويأتي طفله الاول وقد يوقد فيه جذوة من النار الاصلاحية التي خمدت ، وقد يحاول في اسابيعه الاولى ان يرشد زوجته الى الطريقة الصحيحة في توقيت

ارضاعه وتنظيم فترات نومه ويقظته ، والى الطريقة الصحية فى لفه والباسه وغسله واستحمامه ،والى وجوب السماح له بقسط وافر من الهواء الطلق،وضرر اثقاله بالاحجبة وخنق انفاسه بالبخور . ولكن الاسابيع تمر ، والمنازعات تحمى وتشتد، والحموات يتدخلن ، والحبوبات يصحن ويصرخن ويناديـن بالويل والثبور وعظائم الامور التي يتوقعنها للطفل . فيلوذ بنفس السكوت والتسليم ، وينتهى الى نفس الخضوع والاذعان ، ويرى طفله الحبيب امام عينه قذرا متربا ملوثا محملا بالاحجبة ، ويرى امه تسرع به الى الفكى وتستدعى له اصناف الدجالين ، ويعود من عمله يوما ليجد طفلته قد اوقعت بها تلك الجريمة الوحشية المنكرة جريمة الخفاض الفرعونى . ولكنه صار الان الى يأس كامل ونفض يديه نفضا تاما من منزله ، ومات فيه الامل ان يجد فى زوجته صديقة للروح والفا للوجدان وشريكة فى الحياة . فاضطر الى ان يقبلها كماهى: مجرد اداة لاشباع نزوته الجسدية حين تثور به ، اى مجرد خليلة للفراش .

ومعنى هذا ان العلاقة الزوجية تتحول الى علاقة جسمانية صرف ، تكاد لاتزيد عن تلك التي تربط ذكور الحيوان واناثه . تخلو من الحب الرفيع والتعاطف الرحيم والانسجام الهنيء . فاذا هى صارت الى هذا التحديد فما افدح اضرارها بالمرأة وبالرجل معا .

اما المرأة فتمضي فى حياتها المنحطة التي تخلو من السعادة الانسانية الراقية . لاتعرف رجلها الا كآلة تحصل لها النفقة اللازمة للقيام بمطالب المنزل ، وكحيوان بغيض يرغمها بين الفينة والفينة على ان تقدم له جسدها بفتور وكراهية بل بتألم واقع . وهى فى هذا لاتزيد فى صميمها عن العاهر التي

تقدم جسدها لاعن حب والفة بل سعيا وراء لقمة العيش .وهذا يزيدها حطة وينقص من كرامتها الانسانية ، ولايزال بها حتى يلغى ماقد يكون تبقى فيها من هذه الكرامة .

واما الزوج فانه يشعر بعدم الرضي وعدم التحقيق ، ويزداد به جوعه العاطفى الذى لايجد غذاء فيزداد ضيقا بالحياة الزوجية وحقدا على زوجته المسكينة التى عجزت ان تكون له الف الروح ، وينسب كل شقائه اليها ويعاقبها بالغلظة والفظاظة والمعاملة القاسية ، بل قد يتدلى الى الضرب .

ولاتستطيع هى ان تعاقبه بنفس الوسيلة ، فتلتمس جميع الوسائل التى تستطيعها مقدرتها الانثوية ، فتنفس عن حقدها بالقسوة على اطفالها ، وقسوة الام السودانيةعلى اطفالها شيء بلغتني عنه اخبار اكادلا اصدقها ، وتتعمد ان تخيب امل زوجها وتعانده وان تنغص حياته بمختلف الحيل التى تفتقها لها عقليتها الملتوية ، حتى تملأ حياته بالهم والنكد .

وهكذا يصير الشقيان الى حلقة مفرغة ، يزيد كل منهما الاخر شقاء ومرارة ، حتى تخلو حياتهما الزوجية من المودة والرحمة ، وتقفر من اسباب السعادة ، وتبعد كل البعد عن الحياة الاسلامية التى رسمها القرآن الكريم للزوجين ، حين قال جل وعلا « ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ».لم يعد الزوجان يجدان اى سكينة الى احدهما الاخر ، وانقطعت وشائج المودة ، وصار التراحم الى انتقام متبادل وشقاق مستديم .

هذا هو التأثير التفسانى فى الزوجة والزوج . فلننظر الآن فى التأثير الفكرى فى الزوج . هذا الشاب المتعلم الحديث التخرج ، يبدأ حياته الجديدة بنية صادقة على ان يواصل تثقيف نفسه ، ويزداد نهلا من معين العلم والمعرفة، ويعد قائمة باسماء الكتب التى لابد ان يقرأها ، والموضوعات التى لابد ان يدرسها . ولكن إلام يصير من جراء تلك الزيجة الشقية؟ وكيف تنتهى حاله وهو حين يرجع الى منزله كل يوم يرتد الى ظلمات القرون الوسطي ؟

يفتر بالتدريج عزمه ، وتنطفىء حميته فى طلب العلم ، ويسأم الكتب والدراسات الجدية ، وينقطع عن مجرى الثقافة المتجدد شيئا فشيئا ، فينسى معظم ماحصله فى تلمذته ، ويصير عقله تدريجا الى التبلد والجمود من انقطاع التمرين الفكري ؛ فان العقل محتاج الى المران المستمر حتى يحتفظ بنضارته وحيويته . فيصبح الة روتينية لاتفكر الا بالقدر الضرورى الذى يلزم لتأدية عمله الرسمي تأدية آلية رتيبة .

ولكن دعنا الان ننظر فى الاثر الاخر الجسيم ؛ وهو الاثر الخلقي .

فهذا الزوج الحاقد اليائس الخائب الامل ، ينتهى الى ان يكره البيت كرها ساما ، فيهرب منه كما يهرب من الجحيم ، ولا يستعمله الا مضطرا ، ويقضى كل ما يستطيع من اوقات فراغه فى خارجه ، فى المقاهي والمنتديات ، وياليته يكتفي بهذا . بل فى كثير من الاحيان ينحدر الى المراقص الماجنة ودور الشراب وبيوت الريبة . يحسو الخمر وينغمس فى الفجور ، يحاول جهده ان يجد فى هذه البؤر المعربدة طربا مصطنعا يستعيض به عما افتقده فى بيته من المسرة والبهجة ويحاول ان يجد بين اقران السوء وفى احضان بائعات الهوى الصاخبات بديلا

عن تلك الضحكات الهـــنيئة السعيدة التى لايجدها فى مـــنزله العابس الكـــئيب .

فان كان هناك من يظنون اننى بالغت فى تصوير الضرر النفسانى والفكرى والخلقى الذي يحيق بالمجتمع من هذا الزواج الشقى المتنافر فانهم يغفلون عن مبلغ الخطب ويفضلون ان يفعلوا فعل النعامة فى تجاهل الخطر الماثل . هؤلاء لايدركون ولا يريدون ان يدركوا مدى الانحلال الشائع فى اوساط الشبان . وانا لم ابالغ فيما قلت ، بل تركت جانبا آخر شنيعا ، هو انتشار الشذوذ الجنسى بين الشبان نتيجة لانهم يفتقدون فى الزوجة إلفهم الروحى وشريكهم الثقافى وصديقهم المتعاطـــف المتفاهم . ولكن ليس الان مجال الحديث عن هذا الداء الذريع .

تحرير الرجل

ايها السادة ـ من كلامي الذي مر يتضح لكم السر فى اننى فى كتاباتي الاجتماعية اهتممت باصلاح المرأة اكثر مما اهتممت باصلاح الرجل . فالسبب هو اعتقادى الراسخ بانه لاسبيل الى اصلاحه بدون اصلاحهـــا ، ويقيني ان كل الجهود التى تبذل فى تعليمه وتثقيفه وتحرير عقله يضيع معظمها هباء اذا ابقينا المرأة ـ اي ابقينا الام والزوجة ـ جاهلة متأخرة.

تحدث المتحدثون عن سعيي فى تحرير المرأة السودانية ، فقابلوه بالرضي اوبالغضب ، والحقيقة هي ان الراضين والغاضبين معا لم يفهموا دعوتي فى

تمامها . ولو فهموها لادركوا اني لست ادعو الى تحرير المرأة السودانية فحسب ، بل انا ادعو الى تحرير الرجل السوداني من سيطرة المرأة الجاهلة المتأخرة .

اريد ان يتحرر الرجل السوداني من هذا النير الثقيل الذي يتحمله الآن مادامت امه وزوجته في هذه البدائية والتخلف ، والذى ينوء به ويعرقل خطاه الى النهوض فالتقدم ، ويضيع عليه معظم الفرص التى يؤهله لها ذكاؤه الطبيعي ومواهبه العريقة . هذا الكلكل الشديد الوطأة الذى يؤذيه من نعومة اظفاره الى رجولته وكهولته . يؤذيه فى صحته الجسمانية ، وفى سلامته النفسية ، وفى نضوجه الثقافى ، وفى رقيه الخلقى ، ويحرمه الطمأنينة والرضى والاستقرار ، ويبقي مجتمعه كله مريضا مفككا متخلفا عن ركب التقدم .

لم اجد رجلا يخادع نفسه كالرجل السودانى . فهو انه يظن انه السيد المسيطر والآمر المطاع ، والحقيقة المضحكة المبكية هي انه دون ان يدرى آلة طيعة فى يد امرأته الجاهلة المتأخرة . تصرفه كيف تشاء وكيف يشاء لها جهلها وتأخرها ، وترغمه فى معظم احداث عيشته المنزلية على ان يذعن لاهوائها الحمقاء وخرافاتها البدائية واوهامها الوثنية الجاهلية .

يخضع للحماة الجشعة فى نفقات العرس المبذرة وطقوسه السخيفة التى لاداعى لها .

ويخضع للحبوبه الرجعية والزوجة الجاهلة فى طقوس الولادة والختان ، والزار والاسياد والفقهاء . ويخضع لهما فى تنشئة جسم الطفل تنشئة قذرة

بعيدة عن عناصر الصحة مفعمة بالامراض وفريسة سهلة للاوبئة . ويخضع ايهما في تربيه نفس الطفل وعقله تربية معوجة ملتوية في جو مختنق بالخرافات والسحر والعزائم والشعوذة . ويخضع لهما في معظم المناسبات الاخرى التي تعود بالضرر الوبيل المادي والجسماني والروحي عليه وعلى اطفاله . وبعد هذا يظل يوهم نفسه انه السيد المسيطر والامر المطاع!

وحين يضيق صدره وتثور رجولته على هذا الخضوع الذليل يجد متنفسه في ان يقسو على المرأة بالضرب والايذاء ، ويظن هذه القسوة علامة الرجولة المسيطرة ، وهي لو درى علامة اخرى على ضعفه وعجزه عن ان يقاوم سخافاتها وحماقاتها بالاقناع الهادىء او المهابة الشخصية الجليلة ، فاذا نفد صبره لجأ الى الطلاق او تعدد الزوجات . يظن بهذا انه يعاقب المرأة وهو يعاقب نفسه اضعافا؛ فانه انما يفر من امرأة جاهلة سخيفة متأخرة الى اخرى تساويها في الجهل والتأخر وسخف العقل . فهو كالذي يفر من الاسد ليقع في براثن النمر ، واني له الفرار مادامت جميع ملايين النساء في بلاده ماعدا مئات قليلات في تلك الحالة النكراء.

لقد تحدث الكثيرون عن مبلغ شقاء المرأة من اضطهاد الرجل، وكنت انا احدهم ، ولكني لم انس قط الناحية المقابلة في هذه الجناية المزدوجة، وهي مبلغ شقاء الرجل بامرأته الجاهلة المتأخرة، ومايدفعه من ضريبة فادحة في صحته واعصابه وعقله وماله وسعادته، وفي صحة اطفاله وسلامتهم النفسية والعقلية والخلقية . والذي يحيرني هو - الى متى يظل الرجل السوداني

خاضعا خانعا لهذه العبودية؟ لماذا لايحرر نفسه بوسيلةالتحرير الصحية وهى ان يحرر امرأته من جهلها وانحطاطها ؟

متى يستجمع الرجل السوداني رجولته فيواجه إنحطاط المرأة بشجاعة وعزم ، ويسعى فى ان ينتشلها من وهدتها : هذه الوهدة التى مادامت فيهاظلت اجره الى حضيضها وترغمه على التمرغ فى حمأتها ؟متى يقدم على طريق الاصلاح ويمضى فيها بقوة وتصميم مهما تكن طريقا صعبة مضنية ؟

وسائل الاصلاح

هو لن يفعل هذا الا اذا الح الكتاب المصلحون في تفهيمه كيفانه يتعدى حتما بعدوى المرأة شاء او لم يشأ ويتأثر بانحطاطها ويشقي بشقائها وان تقدم مجتمعه كله و ترقيه فى درجات الكمال مرهون بها هي : فهي المفتاح الى المستقبل السعيد الكريم . ان نبذه ظل بابه مغلقا عليه مهمايطرقه بقبضة يده او يهزه بقوة كتفه .

فاذا ادرك هذه الحقيقة وبدأ يقلب النظر فى طريق الاصلاح ، فانه سيكتشف انهناك وسيلتين متكاملتين لابد ان توجدا معا . وتسير جنبا الى جنب ولاتنى احداهما عن الاخرى . وهما تعليم المرأة ، واصلاح الاوضاع الاجتماعية التى تقضى عليها بالحطة والمهانة .

اولا ـــ تعليم المــــرأة

هنا سيذكرني الكثيرون بالتقدم ، الذى تم فعلا فى هذا السبيل ويعطونني الارقام

التي تدل على ازدياد عدد المدارس للبنات ، وازدياد عدد التلميذات ، والتي تدل بالتالى على تزايد اهتمام الرجال بتعليم بناتهم.

ولكنى بعد ان اسلم بهذه الحقائق والارقام ، اعود فأقول لاتقنعني . لاتقنعني بان الامة كلها ، حكومة وشعبا ، تفعل كل ما يمكن فعله فى سبيل تعليم المرأة ، حتى فى حدود الامكانيات المالية الحاضرة . فهى ، حكومة وشعبا، لا تزال فى حاجة الى ان تزيد الجهد اضعافا مضاعفة قبل ان تستطيع ان تفخر بعملها .

ولا تقنعنى بان الرجال قد اقتنعوا اقتناعا حقيقيا بأهمية تعليم بناتهم. فان ما يولونه هذا التعليم من اهتمام لا يزال سطحيا عارضا لا يصدر عن عقيدة راسخة . وهم لا يزالون ينظرون اليه على انه شيء كمالى زائد ان فعلوه وجب لهم الشكر وان لم يفعلوه فلا جناح عليهم وليس لاحد ان يطالبهم به .

والا فاجيبونى على هذا السؤال : كم من الاباء السودانيين ، اذا كان لهم ولد وكانت لهم بنت ، فكروا فى تعليمهما بنفس الاهتمام ، وسلموا لهما بحق التعليم على قدم المساواة ؟

اذا فكرتم فى سؤالى هذا ، اتضح لكم ان الكثرة الغالبة من الرجال لم يقبلوا الى الآن تعليم المرأة كأمر ضرورى حيوي ، بل هم لا يزالون يعدونه شيئا اضافيا ، فهم يرسلون ابنتهم الى المدرسة بضع سنوات قليلات تحصل فيها على أبسط التعليم وأزهده . وهم فى الحقيقة يرسلونها كضرب من ضروب

قضاء الوقت الى ان تبدأ فى سن المراهقة فيسرعون بتزويجها فى اول فرصة يجدونها، قبل ان تتم تعليمها وقبل ان تستوفى نضوجها وتستكمل استعدادها لتكون زوجة صالحة واما حكيمة نافعة.

ولا شك ان هؤلاء سيسخرون منى حين اقرر لهم ان تعليم البنت يساوى فى أهميته وحيويته ولزومه لمجتمعهم تعليم الولد مساواة تامة. ولكن ماذا يكون رأيهم حين ازيد على هذا فأقول ان بعض الباحثين الاجتماعيين لا يسوون بين تعليم البنت وتعليم الولد فحسب، بل يعدون تعليمها أهم والزم لترقية الامم الشرقية التى لا تزال على درجة من التخلف الاجتماعى.

كان أول ما سمعت هذا الرأى العجيب من صديق اوربى تجول فى معظم بلدان الشرق الاوسط ودرس أحوالها الاجتماعية دراسة وافية. فقال لى انه لو كان وزيراً للمعارف فى قطر شرقى ووجد فى ميزانيته مالاً كافياً لانشاء مدرسة واحدة فقط اما للبنين واما للبنات لانشأ مدرسة للبنات.

وكنت أول ما سمعت هذا الرأى استغربته وظننته يتعمد المبالغة. ولكننى كلما تقدم بى العمر سنة وزدت الامر تفكيراً ازددت اقتناعاً بوجاهة رأيه وعمق فهمه لمنبع الداء فى مجتمعاتنا الشرقية وصحة ادراكه للطريق الصحيحة الى تطورها والنهوض بها.

ولقد اصابت السيدة زوجة لياقات على خان حين قالت فى سنة ١٩٥٢: أذا علمت رجلا فقد علمت فردا واحداً؛ اما اذا علمت امرأة فقد علمت اسرة بأكملها.

اصابت فى قولها هذا صميم الحقيقة . اما وقد فصلنا القول فى تأثير المرأة كزوجة وتأثيرها كأم فى ترقية المجتمع او انحطاطه فما اظننا نحتاج الى ان نطيل فى التعليق على كلامها . ولكنى ارجو ان يتدبره الرجال وينعموا فيه النظر ويقلبوا فيه وجوه الفكر ، وهذا هو اثبته مرة اخرى :

اذا علمت رجلا فقد علمت فردا واحدا ، اما اذا علمت امرأة فقد علمت أسرة باكملها .

ثانيا ـ كرامة المرأة

قلت ان هناك وسيلتين للاصلاح تكمل احداهما الاخري، ولا تستغنى واحدة منهما عن الثانية ، بل يجب ان تتلازما وتتفاعلا . وقدشرحت اولاهما وهى تعليم المرأة ، فلنعرض الثانية ، وهى اصلاح الاوضاع الاجتماعية الراهنة التى تحكم على المرأة بمنزلة منحطة فى المجتمع .

كان العرب فى جاهليتهم ينظرون الى المرأة كمخلوق حقير ينخفض عن الرجال فى القيمة البشرية . وبلغ احتقارهم لها انهم كانوا اذابشر احدهم بميلاد انثى له ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، وعدها سبة وعارا ، وتوارى من أصحابه من فرط شعوره بالخزى ، ولم يدر ماذا يفعل ، ايتركها حية ومجرد وجودها اهانة له ، ام يتخلص منها فيدسها فى التراب . وكان بعضهم فعلا يلجأ

الى هذا الحل الثانى ، فيقبر بنته الحية بقسوة وحشية بالغة .

ثم جاء الاسلام ، بنوره ورحمته ، وعدله ومساواته ، ولم يفرق بين ذكر وانثى فى الكرامة البشرية ، فحرم تلك العادة البربرية ، وقرر للانثى حقها فى الحياة الانسانية الكريمة بما لايقل مثقال ذرة عن حق الرجل ، وجعل لها قيمة بشرية مساوية لقيمته ، والح فى تقرير هذه الحقيقة فى ايات قرانية عديدة

فلفتهم كتاب الله المجيد الى ان خالقهم قد خلقهم جميعا من نفس واحدة وانه من هذه النفس الواحدة قد خلق زوجها ، ومعنى هذا ان النساء من نفس عنصر الرجال ، فالجنسان متساويان تمام التساوى فى القيمة البشرية . وقد ايد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة بقوله : النساء شقائق الرجال

ومن الله سبحانه وتعالى على الرجال بانه قد خلق لهم من انفسهم ـ اى من نفس عنصرهم ومعدنهم ـــ ازواجا ليسكنوا اليها (تأمل فى هذا التعبير الجميل الذى يتدفق حنانا ـ ليسكنوا اليها.)وجعل بينهم وبينهن مودة ورحمة وبذلك قرر العلاقة الوحيدة التى يرضاها بين الزوج والزوجة ، وهى علاقة سكينة والتواد والتراحم ،

هذه روح الاسلام البينة وتلك تعاليمه القاطعة . فهل يتبعها الرجال فى هذا القطر الاسلامي ؟

ان الحقيقة المحزنة هى انهم قد ارتدوا عن الاسلام الى العقلية الجاهلية فى نظرتهم الى المرأة . فهم يصبون عليهـــا من التحقير والاهانة نظير ما كان

يفعله الجاهلون . ينظرون اليها بكل تأكيد كمخلوق ادنى منهم واحط في المرتبة الانسانية واقل حقا في الحياة الكريمة .

وهم يتقاولون في حطة المرأة وهوانها امثالا عامية غاية في الفحش والقذارة . تجعلها (قذر) البلاد ، وتجعلها الماعون الذي يلقى فيه الرجل (بقذره) . الى آخر ما يتندرون به في هذا السياق .

صحيح انهم لا يئدونها كما كان يفعل اسلافهم الجاهليون . ولكن ما من اهانة دون القتل الا يوقعونها بها . فهم لا يزالون يتقبلون خبر ميلادها بنفس الغيظ والخزي الذي سجلته تلك الاية الرائعة . وهم يمسكونها على هون اقصر مدة ممكنة . فما ان تبلغ من السنوات عشرا او تزيد عليها بقليل حتى يفكروا في التخلص منها ، بتزويجها قبل ان يتم استعدادها الجسماني والنفساني لاطاقة الزواج ، مخالفين في هذا نصوص التشريع الأسلامي التي تحرم دخول الرجل على المرأة الا بعد ان تصبح مطيقة لهذا الدخول .

والذين قرأوا منكم التصريح المؤثر الذي اصدره في هذا الموضوع حضرة صاحب الفضيلة قاضي قضاة السودان ، يتذكرون اشارته الى الحوادث التي بلغت رجال الشرع في هذه البلاد عن بنات صغيرات يزوجهن اباؤهن لا لشيء الا للتخلص من نفقتهن — حتى اضطر رجال الشرع الى ان يصدروا منشورا يقررون فيه ان هذا الزواج الصوري المتحايل لا يسقط النفقة عن الاب ما دامت البنت غير مطيقة للدخول .

من هذا كله يبدو جليا ان الرجل لا يزال ينظر الى بناته كخزي اجتماعي

لحق به وعبء بغيض لانفع فيه يتحمله مرغما كارها ويسعى جهده فى ازاحته عن كاهله بأسرع فرصة يجدها .

والرجل يغرس فى اولاده الذكور هـذه العقيدة منذ نعومة اظفارهم . ولذلك لا نجد اهانة المرأة واقعـة عليها من الرجل الكبير وحده ، بل نجدهـا تعانى غطرسة الولد الصغير واستعلاءه وتلقى الامرين من تحقيره واضطهاده ومن سبابه القذر منذ السنة الاولى التى يستطيع فيها لسانه الصغير ان يلثغ بالكلام البشرى .

فما تأثير هذه النظرة المحتقرة فى كيان المجتمع وماأثرها على مستقبله؟

هنا ايضا يقول الكثيرون من الكتاب ان المرأة تكون نصف المجتمع . فاحتقارها واهانتها يعنى ان نصف المجتمع محتقر مهان .

ولكن هذا مرة أخرى وصف قاصر لا يستوفى الرزء الكامل . فان النصف الآخر من المجتمع وهو الذكـــور يتأثر تأثراً لازما لا مفر منه ، فينعدى بعدوى هذه الحطـة التى يفرضها على الاناث.. فالحط من كرامة المرأة ـــ اى من كرامة امه وزوجته ـــ حط من كرامته هو ، تتغلغل سمومه الخبيثة فى اعمـاق نفسه .

ان الولد الذى يدرج من حجر أم مهانة محتقرة محتوم عليه ان تتشرب نفسيته قدرا من هذه الخسة . فهو الى حد ما مخلوق وضيع لان نصف اصلـــه وضيع . وهومهما يتغطرس بذكورته ويتبختر برجولته يجد فى صميم نفسيتـه عرقا منحطا لا يمكنه ان يستكمل جلاله الانسانى . فهو يظل مضطربا غير واثق

تمام الوثوق من كمال عزته . ونفس هذا الشعور الدفين بالنقص والخسة هو الذي يدفعه الى ان يبالغ فى غطرسته الذكرية يحاول ان يخفى بها عن نفسه مايشعر به فى صميمه من عدم استكمال كرامته الانسانية . ومثل ذلك الرجل الذي يشعر شعورا باطنا بالنقص تظل شخصيته غير مطمئنة وغير ثابتة وغير واثقة بنفسها ولا يتاح لها الاستقرار والنضوج والسعادة .

والزوج الذى يهين زوجته يهين نفسه هو ايضا وان لم يدر . فلا تمام لكرامة الزوج بدون كرامة الزوجة . وكل اهانة يوجهها الى انوثتها تجرح ذكورته جرحا عميقا باطنا قد تكون له اخطر الاثار على رجولته الكاملة .

والنتيجة هي ان المجتمع الذي يهين نصفه الرجالى نصفه النسائى يكون فى مجموعه مجتمعا ممتهنا ذليلا ناقص الكرامة الانسانية .

ان الولد الذى ينشأ فى كنف ام منتقصة الكرامة مستحيل ان يكون تام الكرامة ، وان الزوج الذى يأوي الى احضان زوجة محتقرة مستذلة مستحيل ان تخلو نفسيته من اثار الحقارة والذل . وان مجتمعا هذان نصفاه لمجتمع مكتوب عليه ان يظل فريسة سهلة للاستعباد ، ان لم يكن استعباد المحتلين من الاجانب فاستعباد الطغاة الباطشين من المواطنين . وهذا الثانى ربما لا يقل عن الاول سوءا وظلما واهدارا لحقوق الشعب وحطا من كرامة المحكومين

المرأة : الداء والدواء

ايها السادة ـ متى يدرك الرجل السودانى ان المرأة الجاهلة المتأخرة المنقوصة الكرامة هى أس الداء الذى يعانيه وهى منبع الدواء الذى ينشده ؟

فى الاسبوع الماضي (١٧ر١٢ر١٩٥٤)تحدث الاستاذ الفاضل محرر «يوميات العاصمة» فى جريدة (الايام) عن سعيي فى تحرير المرأة السودانية . فسماني

متهكماً « الشيفاليه - اي الفارس - الذى جعل من نفسه مدافعاً عنها ومنافحاً عن حقوقها » . ثم قال فى سخرية لاذعة « اما الرجال فاهم الله فى هذا البلد اليس بين بروفسيرات الكلية من ينتصر لنا معشر الرجالة ! . »

وهذا مثال جيد على غفلة الرجال السودانيين - حتى بعض المثقفين منهم - عن تلك الحقيقة الاليمة التي انفقت فى شرحها محاضرتي هذه كلها - وهي انما مايشكونه من العذاب والشقاء ليس الا النتيجة الحتمية لبقاء نسائهم جاهلات منحطات . وان الذى يسعي في تعليم المرأة وترقيتها واعادة كرامتها لايقصد خدمة المرأة وحدها ، بل يريد القضاء على جرثومة الفساد التى تلوث المجتمع كله نساءه ورجاله واطفاله ، حاضره ومستقبله . »

ايها الرجال — حرروا نساءكم من جهلهن وانحطاطهن تحرروا انفسكم من براثن الجهل والخرافة وتنقذوا مجتمعكم من عاداته الضارة ورذائله القبيحة وتخلصوه من تخلفه وتسيروا به قدماً فى ركب النهضة والرقي .

ايها السودانيون — حققوا للمرأة أسباب الحياة السعيدة الكريمة تستكملوا سعادتكم وتستتموا كرامتكم البشرية وتنتشلوا امتكم من حضيض الذل والحطة وتحققوا لها ماتطمح اليه من العزة الوطنية الكاملة .

ايها المسلمون - ادركوا كرامة الانوثة التى نادى بها دينكم منذ الف واربعمائة عام ، واعطوا المرأة ماقررها لها الاسلام من العدل والتسوية ، وحققوا بينكم وبينها مادعا إليه من السكينة والمودة والرحمة ، تسعد دنياكم ، وتسم روحكم ، ويصلح دينكم ، وتكونوا من المفلحين .

محمد النويهي

كلية الخرطوم الجامعية

ديسمبر ١٩٥٤

تصحيح

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٣	١٤ديسمبر	٢٤ ديسمبر
٥	٥	ما	إما
١٧	١	الصحية	الصحيحة
١٧	٥	لجره	تجره
١٧	١٥	تي	تغنى

ضمير يستيقـــــــــــــظ ...

كيف أستقبل أهل واد مدني هذه المحاضرة « المرأة وتقدم المجتمع » حين القيت عليهم ، وهى نقد صريح لعيوب جوهرية فى المجتمع السوداني ؟

هل غضبوا وثاروا على المحاضر ؟

كلا ! ... « دام التصفيق اكثر من سبع دقائق كاملة »

— مراسل جريدة صوت السودان ٢٩ر١٢ر٥٤

هذه شهادة رائعة بتيقظ الضمير السوداني واستعداده لسماع النقد الصريح مهما يكن قاسيا ... اذا كان صادق الرغبة فى الاصلاح .

فالى هذا الضمير نقدم محاضرة الدكتور النويهى فى شكل كتب ، تلبية لطلب من سمعوها ، حتى تنتشر افكارها فى اوسع نطاق .

الثمن فى جميع انحاء السودان ٠٠٠